

مدارس دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة

د. حسن حلمي أبو الفضل العسيري

مدرس التاريخ الإسلامي
معهد البحوث والدراسات الأفريقية
ودول حوض النيل - جامعة إسوان

ملخص البحث باللغة العربية

تتاول هذا البحث مدارس مدينة دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة، وقد أشار الباحث من خلال هذا الموضوع إلي عدة نقاط أهمها :

- كثرة المدارس الفقهية التي انتشرت في كل أنحاء مدينة دمشق، فقد شهدت هذه المدينة انتشاراً واسعاً لفقه الإمام مالك والإمام أبو حنيفة والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وقد برع أبناء دمشق في دراسة هذه المذاهب الفقهية .
- كذلك تنوعت طرق وأساليب الدراسة في مدينة دمشق مما جعل تحصيل العلم في مدينة دمشق سهل وميسر للجميع، فقد كانت هناك مراعاة لظروف الطلاب والباحثين
- اهتمت مدينة دمشق بتوفير الحياة الكريمة للفقهاء وللمعلمين مما كان له عظيم الأثر في النهضة العلمية التي شهدتها مدينة دمشق عصر المماليك وهذا ما شاهده ابن بطوطة عند زيارته للمدينة .
- كانت الرحلة لطلب العلم من وإلى دمشق ميسرة، حيث اهتم ملوك دولة المماليك بالرحلة العلمية مما أثر بشكل إيجابي علي النهضة العلمية في المدينة .
- عرفت مدينة دمشق كغيرها من مدن العالم الإسلامي الإجازات العلمية وهي بمثابة شهادة تمنح للمدارس عند إتمام دراسته يتأهل بعدها الطالب للجلوس للفتيا وبذل العلم .

summary

This research deals with the schools of Damascus and their cultural role through Ibn Battuta's description. Through this topic the researcher pointed out several points, the most important of which are:

- The large number of schools of jurisprudence that spread throughout the city of Damascus. This city witnessed a wide spread of the jurisprudence of Imam Malik, Imam Abu Hanifa, Imam al-Shafi'i and Imam Ahmad ibn Hanbal, and the people of Damascus excelled in studying these jurisprudence schools.

- The methods and methods of study were also varied in the city of Damascus, which made acquiring education in the city of Damascus easy and accessible for all, as there was consideration for the conditions of students and researchers.

- The city of Damascus was interested in providing a decent life for jurists and teachers, which had a great impact on the scientific renaissance witnessed by the city of Damascus in the Mamluk era, and this is what Ibn Battuta saw when he visited the city.

- The trip to seek knowledge to and from Damascus was easy, as the kings of the Mamluk state were interested in the scientific journey, which positively affected the scientific renaissance in the city.

- The city of Damascus, like other cities in the Islamic world, is known for academic degrees, and it is like a certificate granted to schools upon completion of his studies, after which the student qualifies to sit for fatwas and do knowledge.

المقدمة:

يعد ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المولود بمدينة طبخة في السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هجرياً / الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٣٠٤ ميلادياً - من أشهر الرحالة العرب المسلمين الذين جابوا البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ينتقلون بين جنات العالم الفسيح بحثاً عن معرفة أحوال الأمم والملوك يسطرون بأقلامهم مشاهداتهم عن أحوال هذه البلاد في شتى نواحي الحياة المختلفة ليقدموا صورة صادقة وواقية عن هذه المجتمعات، فقد رأوا بأعينهم وعاشوا أحوال هذه الأمم مما يعطي لمعلوماتهم المصدقية في كل ما يذكرونه عن البلدان التي زاروها، ويجعل من أقوالهم مادة أصيلة عند كتابة تاريخ هذه المناطق فليس من رأى كمن سمع.

ومن أهم هذه المدن التي زارها ابن بطوطة (مدينة دمشق) ^(١) تلك المدينة التي افتتحت في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه سنة ١٤ هجرياً افتتحها أبو عبيدة بن الجراح من باب يقال له باب الجابية صلحاً بعد حصار دام سنة ^(٢) وقد زارها ابن بطوطة في فترة تولى حكم دولة المماليك البحرية على مصر والشام في الولاية الثالثة للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١ هجرياً / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ ميلادياً). ^(٣)

^(١) سميت بذلك؛ لأنهم دمشقوا في بنائها؛ أي أسرعوا، وقيل سميت دمشق بدمشق بن مالك ابن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام ابن نوح عليه السلام، وقيل إن الذي بناها حيروت بن سعد بن عاد بن إرم بن سام ابن نوح عليه السلام. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ١٣٧٧ هجرياً / ١٩٥٧ ميلادياً، ص ٤٦٢ .

^(٢) كتاب الاعلاق النفيسة: المجلد السابع، دن، مدينة لندن سنة ١٣٨٧ هجرياً/١٩٦٧ ميلادياً، ص ٣٢٥.

^(٣) محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم للنشر، الكويت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٧ هجرياً/١٩٩٧ ميلادياً، ص ٣٨٢ .

وقد دخل ابن بطوطة دمشق - كما ذكر - يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم سنة ٧٢٦ هجرياً أوائل أغسطس سنة ١٣٢٦ ميلادياً^(٤) وقد أعجب بها وبِعظمتها حتى وصفها بقوله: ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً، وكل وصف وأن طال فهو قاصر عن محاسنها ..^(٥)

ولم يكن ابن بطوطة وحده الذي أعجب بدمشق ومحاسنها، فقد أطنب المؤرخون في وصفها فمنهم من وصفها بقوله: "هي جنة المشرق، وعروس المدن التي اجتليهاها قد تحلت بأزاهير الرياحين ... وتشرفت بأن آوي الله تعالى المسيح وأمه - صلى الله عليهما - منها إلى ربوة ذات قرار ومعين"^(٦)

ومنهم من قال عنها " هي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارتها، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهتها، ونزاهة رقعة " ^(٧)

وقيل في وصفها " هي جنة الشام لحسن عمارتها وبقعتها، وكثرة أشجارها وفواكهها، ومياهها المتدفقة في مساكنها وأسواقها وجامعها ومدارسها " ^(٨)

ووصفها آخر بقوله " دمشق بلاد الأنبياء وموطن الأصفياء من الصحابة والتابعين والأولياء "^(٩)

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، كتاب التحرير، القاهرة، سنة ١٣٨٦ هجرياً / ١٩٦٦ ميلادياً، ص ٦١.

(٥) المصدر السابق والصفحة .

(٦) ابن جبير: رحلة ابن جبير، بيروت، سنة ١٣٨٤ هجرياً / ١٩٦٤ ميلادياً، ص ٢١٠ .

(٧) ياقوت الحموي: مصدر سابق، ص ٤٦٢ .

(٨) البغدادي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، الجزء الثالث، تحقيق محمد الجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٣٧٥ هجرياً / ١٩٥٥ ميلادياً، ص ٥٣٤ .

(٩) عبد الله بن محمد البديري: نزهة الأثام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٤١ هجرياً / ١٩٢٢ ميلادياً، ص ٣٨٤ .

حقاً، كل وصف، وإن طال فهو قاصر عن محاسنها فهذا قليل من كثير في وصف نرة بلاد الإسلام، وحاضرة العالم الإسلامي إنها دمشق .

ومما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو أنني أردت أن أعيش مع ابن بطوطة وهو ينتقل بين جنات مدينة دمشق واصفاً مدارسها كمؤسسات تعليمية وجدت كل العناية والاهتمام من سلاطين المماليك مما جعل للمدارس في مدينة دمشق دوراً كبيراً في تطوير الحياة الثقافية في هذه المدينة، وهذا ما أرادت إبرازه من خلال هذا البحث .

وقد كانت مدينة دمشق عامرة بالعلماء الذين جاعوا من شتي البقاع يؤدون رسالتهم بإخلاص لله سبحانه وتعالى وبطرق وأساليب مختلفة، مع التنوع في مواد الدراسة حسبما يختار الدارس منها ما يشاء، ثم يجاز بعد ذلك من هؤلاء العلماء، وتعد هذه الإجازة بمثابة حجة قوية تثبت للحاصل عليها أنه أصبح بارزاً في فن من فنون العلم والمعرفة حسبما درس، وهذه قمة ما يبغيه الدارس، حيث يحق له بعد حصوله على هذه الإجازة أن يجلس لتعلم غيره وينشر علمه النافع بين طلابه ومريديه .

وقد اتبعت منهج البحث التاريخي القائم على نقد وتحليل الروايات التاريخية وصولاً إلى الواقع الصحيح للأحداث.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أعرضه من خلال الحديث عن النقاط التالية:

أولاً: المدارس الفقهية بمدينة دمشق.

ثانياً: طرق وأساليب التعلم في مدينة دمشق.

ثالثاً: الإجازات العلمية بمدينة دمشق.

أولاً: المدارس الفقهية بمدينة دمشق

يعتبر هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومي هو أول من أحدث الدراسة بمدينة دمشق وكان ذلك بالمسجد الكبير بدمشق^(١٠) أما المدرسة كظاهرة معمارية لم تنشأ في بلاد الشام إلا في القرن السادس الهجري، وكانت المدرسة تحتوي على إوابين وغرف للطلبة، وكان عدد الأوابين يختلف من مدرسة إلى أخرى بحسب عدد المذاهب السنية التي تدرس بها^(١١)

ومن شغفهم ببناء المدارس وسعادتهم عند اكتمال بناء مدرسة قد جرت العادة عند الفراغ من بناء مدرسة أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً كبيراً يحضره سلطان المماليك والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان أي تشارك فيه كل فئات المجتمع الدمشقي، ويمد سماط فاخر في صحن المدرسة، به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه، ويخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة الخلع العديدة إكراماً لهم^(١٢)

وقد تعددت المدارس في مدينة دمشق ووجدت الرعاية والاهتمام من سلاطين دولة المماليك لمعرفتهم بأهمية المدارس ودورها في تطوير الحياة الثقافية في كل ربوع المدينة، وبالفعل شهدت مدينة دمشق خلال عصر دولة المماليك نهضة ثقافية كبيرة هذا خلافاً لمن وصف عصر دولة المماليك بعصر الركود الثقافي والتخلف المعرفي فمن المؤرخين من وصف هذه الفترة - فترة حكم

(١٠) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، المجلد الثاني، القسم الأول، خطط الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي بدمشق، سنة ١٣٧٤ هجرية/١٩٥٤ ميلادية، ص ٥٠.

(١١) أحمد رمضان أحمد محمد: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، دت، دن، ص ١٤١ - ١٤٢.

(١٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثالث، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨ هجرية/١٩٩٧ ميلادية، ص ٤٦٤؛ إنباء الغمر بإنباء العمر، الجزء الأول، دن، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٦ هجرية/١٩٩٢ ميلادية، ص ٧٧٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٦ هجرية/١٩٩٥ ميلادية، ص ٣٤٣.

المماليك - بأنها عصر الظلام أو عصر الفوضى أو العصور المظلمة^(١٣) ومنهم من قال أنه عصر يكاد يخلو من الأصالة والإبداع^(١٤) وقدم آخر مبرراً للركود الثقافي الذي عاشته مدينة دمشق في عصر سلاطين المماليك بقوله: " في عهدهم، بدأ عهد الانحطاط الفكري عند العرب، وذلك أن السلاطين كانوا أميين وبعضهم لا يعرفون اللغة العربية " ^(١٥)

ورغم هذه الآراء، يظل عصر سلاطين المماليك من أزهى عصور التطور والتقدم الثقافي الذي شهدته مدينة دمشق وهذا ما يؤكد هذا البحث من خلال استقراء الأدلة التاريخية التي تؤكد على عظمة دولة المماليك في بناء مجدهم الثقافي في كل المدن التي سيطروا عليها لاسيما مدينة دمشق .

ويري الباحث أن عصر الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١ هجرياً / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ ميلادياً) - وهو ذلك العصر الذي زار فيه ابن بطوطة مدينة دمشق - قد شهد الاهتمام الكبير الذي قام به هذا السلطان تجاه المؤسسات التعليمية بمدينة دمشق لاسيما المدارس بمختلف تخصصاتها، فقد قام هذا السلطان بتوفير الحياة الكريمة للعلماء بما بذله لهم من أموال وعطايا جعلتهم في رغد من العيش مما أعانهم على أداء رسالتهم العلمية على أكمل وجه .

وها هو ابن جبير يؤكد هذا القول عن حديثه عما توليه دولة المماليك من عناية ورعاية خاصة للعلماء بقوله: " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فيرحل إلى هذه البلاد - دمشق - ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها: فراغ البال من أمور المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها " ^(١٦)

^(١٣) أنور زقلمة: المماليك في مصر، مطبعة مندبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥ هجرياً / ١٩٩٥ ميلادياً، ص ١٨ .

^(١٤) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٣٦٧ هجرياً / ١٩٤٨ ميلادياً، ص ٢٤٨ .

^(١٥) رانيا الهاشم: قصة وتاريخ الحضارات العربية، دار إحياء التراث، بيروت الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٠ هجرياً / ١٩٩٩ ميلادياً، الجزء ١٧، ص ٧٥ .

^(١٦) ابن جبير: مصدر سابق، ص ٢٣٢ .

وقد صدق ابن جبير، فإن العالم إذا وجد ما يكفيه وأهله من لقمة العيش، فهنا بيدع العالم وبينكر فسينصرف اهتمامه للبحث العلمي والتنقيب وراء المعرفة بشتى صورها .
أما ابن بطوطة، فقد قصر وصفه عند الحديث عن مدارس دمشق على الحديث عن المدارس الفقهية، وهي المدارس الخاصة بدراسة المذاهب الفقهية الأربعة: المذهب الشافعي - الحنفي المالكي - الحنبلي وفقاً لأكثر المذاهب انتشاراً في مدينة دمشق، وأيضاً لعله لاحظ أهمية هذه المدارس واهتمام السلاطين بها أكثر من اهتمامهم بغيرها، كذلك تحدث ابن بطوطة عن مدارس تعليم الكبار في مدينة دمشق .

(أ) المدارس الشافعية :

وسنبداً بالحديث عن المدرستين الخاصتين بدراسة الفقه الشافعي، كما بدأ ابن بطوطة؛ وذلك لأن المذهب الشافعي كان المذهب الرسمي للدولة منذ عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه، ولكن الظاهر ببيرس كان أول من أعترف بالمذاهب الأربعة في القاهرة وفي دمشق^(١٧)

(١) المدرسة العادلية :

تعتبر المدرسة العادلية أحد أهم المدرستين لدراسة الفقه الشافعي في مدينة دمشق، و أول من شرع في بنائها نور الدين محمود الشهيد ٥٦٨ هجرياً/ ١١٧٢ ميلادياً^(١٨)، وتوفي ولم تتم، ثم بني بعضها الملك العادل سيف الدين ابن أبي بكر بن أيوب ثم توفي ولم يتمها فتمما ولده الملك المعظم وأوقف عليها الأوقاف^(١٩)

(١٧) حسام الدين عباس الحنوري : الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، سنة ١٤٣٢ هجرياً / ٢٠١١ ميلادياً، ص ١١٧ .

(١٨) الصفدي: تحفة نوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، القسم الثاني، تحقيق: إحسان بنت سعيد خلوصي - وزهير حميدان الصمصام، وزارة الثقافة، سوريا - دمشق، د.ط، سنة ١٤١٣ هجرياً/ ١٩٩٢ ميلادياً، ص ٢٠٤ .

(١٩) الصفدي: مصدر سابق، ص ٢٠٤؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، الجزء الأول، تحقيق: جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٤٠٩ هجرياً / ١٩٨٨ ميلادياً، ص ٣٥٩ .

ويذكر لنا بعض المؤرخين سبب تسمية العادلية بهذا الاسم فيقول النعيمي نقلاً عن الأُسدي في تاريخه في ٥٦٨ هجرياً / ١١٧٢ ميلادياً، وفيها شرع نور الدين في عمارة مدرسة الشافعية ووضع محرابها، فمات ولم يتمها وبقي أمرها على ذلك إلى أن أزال الملك العادل البناء وعمل مدرسة عظيمة فسميت العادلية (٢٠)

وجعل في وسطها صهريج يجري الماء فيه وذلك لكي يشرب منه رواد المدرسة و يتوضؤون منه (٢١)

وافتحت المدرسة العادلية رسمياً في احتفال كبير أواخر ٦١٩ هجرياً / ١٢٢٢ ميلادياً (٢٢) وحضره السلطان والقاضي والأعيان و كل فئات المجتمع .

وكان في دمشق مدرستان بهذا الاسم هما : العادلية الصغرى وهي مدرسة للشافعية داخل باب الفرج، شرقي باب القلعة الشرقي وكانت بابا خاتون بنت أسد الدين شيركوه، وقد أوقفتها على ابنه عمها زهرة خاتون بنت الملك العادل (٢٣) فأُنشئت زهرة خاتون هذه المدرسة و عينت لها مدرسين ومعيين ومؤنناً وعشرين فقيهاً وشرطت على المدرس بها إلا يجمع بينها وبين غيرها (٢٤)

وهناك العادلية الكبرى نسبة للملك العادل سيف الدين بن أبي بكر ابن أيوب، وقد سبق الحديث عن بنائها، وكانت المدرسة العادلية الكبرى في القرن السابع الهجري منبراً من منابر العلم والإشعاع الديني في مدينة دمشق، وقد أدت هذه المدرسة دوراً رائداً في تطوير الحياة الثقافية في مدينة دمشق (٢٥)

(٢٠) النعيمي: مصدر سابق، ص ٣٥٩ .

(٢١) ابن جبير: مصدر سابق، ص ٢١٩ .

(٢٢) الصفدي: مصدر سابق، ص ٢٠٤ .

(٢٣) الصفدي: مصدر سابق، ص ٢٠٣؛ النعيمي: مصدر سابق، ص ٣٦٨ .

(٢٤) النعيمي: مصدر سابق، ص ٣٦٩ .

(٢٥) أحمد رمضان: مرجع سابق، ص ١٤٧ .

فقد ضمت العديد من العلماء الذين وفدوا من كل الأقطار بالإضافة إلى الطلاب الذين نهلوا من علم هؤلاء العلماء في شتى المجالات مما ساعد على إثراء الحياة الثقافية في مدينة دمشق، وإذا كان للمدرسة العادلية هذا الدور الكبير في تعليم وتنقيف أبناء مدينة دمشق وغيرهم، فإن هناك مدارس أخرى للشافعية لا يقل دورها في تطوير الحياة الثقافية في مدينة دمشق عن دور المدرسة العادلية إلا وهي المدرسة الظاهرية .

(٢) المدرسة الظاهرية:

المدرسة الظاهرية من أهم مدارس الشافعية التي وجدت في مدينة دمشق، وكان لها دور كبير في تطوير تعليم أبناء دمشق الفقه الشافعي مما ساعد بشكل كبير على انتشار المذهب الشافعي في ربوع مدينة دمشق، فالمدرسة الظاهرية أسهمت وبشكل كبير مع المدرسة العادلية في رسوخ فقه الامام الشافعي لدى طلاب مدينة دمشق .

ومؤسس هذه المدرسة هو الملك الظاهر بيبرس البندقدادي الصالحى^(٢٦) أحد أهم ملوك دولة المماليك البحرية والذي تولى عرش دولة المماليك في الفترة من (٦٥٨ - ٦٧٦ هجرياً / ١٢٥٩ - ١٢٧٧ ميلادياً)^(٢٧)

وكان للملك الظاهر بيبرس اهتمام كبير ببناء المدارس والأنفاق عليها، وبناء هذه المدرسة يعد دليلاً على ذلك، حيث إن الأرض التي بنيت عليها هذه المدرسة كانت داراً لأحمد بن الحسين بن أحمد ابن علي المعروف بالعقيقي، ولما توفي هذا الرجل، اشترى الملك الظاهر بيبرس هذه الدار من ورثته وبنائها لتكون مدرسة للشافعية وعمل بها قبراً ليدفن فيها .^(٢٨)

(٢٦) الظاهر بيبرس: هو ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي البندقداري الصالحى النجمي أحد المماليك البحرية صاحب مصر والشام ولد حوالي سنة ٦٢٠ هجرياً / ١٢٢٣ ميلادياً و كانت مدة حكمه ١٧ سنة وشهرين و ١٢ يوماً وقام برحلة الحج سنة ٦٦٧ هجرياً / ١٢٦٨ ميلادياً وتوفي بدمشق سنة ٦٧٦ هجرياً / ١٢٧٧ ميلادياً للمزيد انظر: النعمي: الجزء الأول، ص ٣٤٩ - ٣٥٠؛ الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، سنة ١٤١٨ هجرياً / ١٩٩٧ ميلادياً، ص ٣٠ .

(٢٧) ابن كثير: البداية والنهاية، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٢٩٨؛ النعمي: الجزء الأول، ص ٣٤٩؛ الجبرتي: مصدر سابق، ص ٣٠ .

(٢٨) ابن كثير: مصدر سابق، ص ٣٥٢؛ النعمي: الجزء الأول، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

وبالفعل تم بناء هذه المدرسة الظاهرية في منطقة داخل باب الفرج، بجوار المسجد الأموي وشرق المدرسة العادلية بالمواجهة وبينهم طريق^(٢٩) وأدت هذه المدرسة دورها كأهم مدارس الشافعية التي أسهمت بشكل كبير في تطوير الحياة الثقافية في مدينة دمشق .
ومما أعطى إلى هذه المدرسة أهمية كبيرة أيضاً أنها كانت مقر إقامة قاضي الشافعية وهذا يكسبها أهمية أخرى بجوار دورها الثقافي^(٣٠)

وهكذا، وجد المذهب الشافعي أرضاً خصبة لكي ينمو وينتشر في ربوع مدينة دمشق، حيث وفد الطلاب من كل أنحاء المدينة لدراسة فقه الإمام الشافعي، وذلك في مدرستين من أكبر مدارس دمشق في ذلك الوقت وهما المدرسة العادلية والمدرسة الظاهرية، فقد كانتا نعم العون لدارسي الفقه الشافعي .

ورغم الدور الثقافي الذي أسهمت فيه كلتا المدرستين في تطور الحياة الثقافية في دمشق، إلا إن مدينة دمشق في نهضتها الثقافية لم تكف فقط بدراسة المذهب الشافعي فقد كان لأصحاب أبي حنيفة مدرسة خاصة لدراسة الفقه الحنفي و معرفة مقاصده إلا وهي مدرسة الشهيد نور الدين محمود .

(ب) مدرسة الشهيد نور الدين للأحناف:

تعتبر مدرسة الشهيد نور الدين محمود من أهم المدارس التي اهتمت بدراسة الفقه الحنفي في مدينة دمشق، ولم يذكر ابن بطوطة اسم هذه المدرسة واكتفى في شأنها بقوله: "للحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين، وبها يحكم قاضي القضاة الحنفية"^(٣١)
ولكن دلت المصادر التي حدتحدثت عن الحياة الثقافية ومدارس الفقه في مدينة دمشق في هذه الفترة على أن اسم هذه المدرسة هي المدرسة النورية نسبة للسلطان الشهيد نور الدين محمود؛ لأن الشهيد نور الدين محمود عندما استولى على الشام كانت له همه عزيمة وعناية

(٢٩) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٦٨ .

(٣٠) ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٦٩ .

(٣١) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٩ .

كبيرة بالتعليم والثقافة فاهتم ببناء المدارس والاتفاق عليها، واهتم كذلك باستدعاء كبار العلماء من كل الأقطار للتدريس في مدارس دمشق حتى أصبحت بلاد الشام في عهده مقر العلماء والفقهاء والصوفية الذين أتوا من كل البقاع^(٣٢)

وقد لقيت مدرسة الشهيد نور الدين محمود رعاية كبيرة من حيث استقدام العلماء وكثرة الطلاب الذين وفدوا للدراسة فيها من كل الأقطار، وليس هذا فحسب، بل إن مدرسة الشهيد نور الدين محمود كانت غاية في الجمال والروعة من حيث البناء المعماري، فقد لقيت اهتماماً كبيراً من هذه الناحية حتى غدت واحدة من أهم مدارس دمشق ذات الطراز المعماري والهندسي الجديد ومما يدل على روعة وجمال هذه المدرسة وصف ابن جبير لها فقد وصفها ابن جبير بقوله :

" ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وبها قبره نوره الله، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شانروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن تقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار بين حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين^(٣٣)

ولقد أدت مدرسة الشهيد نور الدين محمود (المدرسة النورية) دورها كأهم المدارس التي تهتم بدراسة فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان مما ساعد على انتشار مذهب أبي حنيفة في أنحاء دمشق، فكان للمدرسة النورية دورها في التطور الثقافي الذي شهدته مدينة دمشق عصر دولة المماليك .

أما إمام المدينة وعالمها الإمام مالك - رضي الله عنه - وكان لمذهبه شهرة واسعة وانتشار كبير في كل ربوع مدينة دمشق، ومما يدل على ذلك وجد عدة مدارس تهتم بدراسة فقه الإمام مالك و منتشر في كل أنحاء هذه المدينة .

(٣٢) محمد كرد علي : خطط الشام، الجزء الخامس، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٣ هجرية/

١٩٨٣ ميلادياً، ص ٦٧ .

(٣٣) مصدر سابق، ص ٢٣١ .

(ج) مدارس المالكية:

مدارس المالكية هي المدارس التي تهتم بدراسة فقه الإمام مالك إمام دار الهجرة رضي الله عنه، وقد كان في مدينة دمشق عدة مدارس لطلاب ومريدي التفقه في فقه الإمام مالك رضي الله عنه، وهذا إن دل، فإنما يدل على حب أهل دمشق لفقه إمام دار الهجرة واعتقادهم مذهبه . ولقد لاحظ ابن بطوطة أثناء زيارته لمدينة دمشق أن هناك أكثر من مدرسة متخصصة في دراسة فقه الإمام مالك و منتشرة في أنحاء عديدة من مدينة دمشق وذكر منها المدرسة الصمصامية والمدرسة الشرايشية، ونبدأ كما بدأ ابن بطوطة بالمدرسة الصمصامية .

(١) المدرسة الصمصامية :

من أهم المدارس التي تهتم بدراسة الفقه المالكي المدرسة الصمصامية ولم يعرف مكان هذه المدرسة بالتحديد، فهناك من يقول أنها تقع بمحلة حجر الذهب شرقي دار القرآن الكريم الوحيية وقبلية المسرورية الشافعية^(٣٤) وهناك من يرى أن موقعها بين دار الحديث الأشرفية والبيمارستان النوري جنوب دار القرآن الصوفية^(٣٥)

ومرجع هذا الخلاف في تعيين مكان هذه المدرسة أنه لا يوجد مصدر يؤرخ لبناء هذه المدرسة ويهتم كذلك بتحديد مكانها .

وقد ذكر ابن كثير أن هذه المدرسة قد تم افتتاحها سنة ٧١٧ هجرياً / ١٣١٧ ميلادياً وحضر الافتتاح كثير من القضاة و العلماء والأعيان وابن تيميه وغيرهم من العلماء وطلاب العلم^(٣٦) ونرى أن هذه المدرسة كانت من الأهمية بمكان في مدينة دمشق، وذلك لما اقتصت به هذه المدرسة دون مدارس المالكية، فمما اقتصت به إقامة قاضي القضاة المالكية بها، فكانت بمثابة دار إقامة واستراحة و مسكن خاص لقاضي القضاة المالكية، وليس هذا فحسب، بل إن قاضي القضاة جعل من هذه المدرسة مكاناً للفصل في القضايا التي تعرض له، فكانت هذه المدرسة

^(٣٤) النعيمي: الجزء الثاني، ص ٨ .

^(٣٥) حسام الدين عباس الحنوري: مرجع سابق، ص ١٤٢ .

^(٣٦) البداية والنهاية: الجزء الرابع، ص ٧٨؛ حسام الدين الحنوري: مرجع سابق، ص ١٤٢ .

بجانب دورها الثقافي في تعليم الفقه المالكي كان لها دور قضائي، فهي بمثابة محكمة يمارس فيها قاضي القضاة المالكية عمله، حيث يجلس فيها للنظر فيما يعرض عليه من قضايا، وهذا ما أكده ابن بطوطة عند حديثه عن هذه المدرسة، حيث قال: "وبها يسكن قاضي القضاة المالكية وقعوده للأحكام" ^(٣٧) وقال في موضع آخر: "وأما قاضي المالكية، فهو شرف الدين ابن خطيب الفيوم ... وهو شيخ شيوخ الصوفية ... ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية ... ^(٣٨)

هكذا أدت المدرسة الصمصامية دورها في تثقيف أبناء مدينة دمشق وتعليمهم الفقه المالكي، وكذلك كان لها دور رائد في القضاء، حيث جلس فيها القاضي القضاة المالكية للنظر فيما يعرض عليه من قضايا، وكانت هذه المدرسة أيضًا بمثابة دار الضيافة أو سكن خاص لقاضي قضاة المالكية .

وهناك مدرسة لا تقل أهمية عن المدرسة الصمصامية في تعليم ودراسة فقه الإمام مالك ألا وهي المدرسة الشرايشية هذه المدرسة التي اكتسبت أهمية خاصة بسبب نزول وإقامة ابن بطوطة بها أثناء زيارته لمدينة دمشق - كما سنرى .

(٢) المدرسة الشرايشية:

تعتبر المدرسة الشرايشية إحدى أهم مدارس المالكية التي وجدت في مدينة دمشق عصر دولة المماليك البحرية، وتوجد هذه المدرسة في منطقة عرفت بدرب الشعارين بالقرب من حمام صالح ^(٣٩) داخل باب الجابية ^(٤٠)

ولا نعرف من خلال المصادر التي بين أيدينا على وجه التحديد - أول من بناها، لكن ابن بطوطة ذكر أن الذي عمرها شهاب الدين الشرايشي التاجر ^(٤١) وهو أحمد ابن نور الدولة علي

^(٣٧) مصدر سابق: ص ٦٩ .

^(٣٨) مصدر سابق: ص ٦٧ .

^(٣٩) لم يذكر أحد المؤرخين من أصحاب المصادر التي بين أيدينا شيئاً عن صاحب هذا الحمام ولا عن سبب شهرة هذا الحمام .

^(٤٠) النعيمي : الجزء الثاني، ص ٧ .

^(٤١) مصدر سابق : ص ٦٩ .

ابن أبي المجد بن محاسن الشرايشي المعروف بالتاجر السفار - يبدو أنه كان كثير السفر والترحال لذلك وصف بهذا الوصف، كان له همة ونشاط وتودد إلى الناس^(٤٢)

ومن ما يسترعي الانتباه التصميم المعماري لهذه المدرسة، فقد نزل فيها ابن بطوطة، وأقام بها عند زيارته لمدينة دمشق، وهذا معناه أن المدرسة ملحق بها مكان معد لضيافة وإقامة من يأتي إلى المدينة من كبار العلماء والرحالة ولاشك أن ابن بطوطة كان واحداً منهم، وهذا يجعلنا نتصور ونتخيل الشكل المعماري لهذه المدرسة وأنها بنيت على طراز معماري فريد ومنظم يرقى إلى درجة بناء أحدث دور الضيافة الملحقة بالجامعات في وقتنا الحاضر.

وهذا إن دل، فإنما يدل على مدى الاهتمام الكبير الذي شهدته المؤسسات التعليمية في العمارة والبناء وخاصة المدارس، وما يلحق بها من أماكن خاصة لإقامة القضاة والعلماء و كبار الزوار الذين قصدوا مدينة دمشق .

كذلك الشيء الآخر الذي يلفت الانتباه أن الذي اهتم بالإتفاق على هذه المدرسة وتعميرها وجعلها غاية في الروعة والجمال المعماري هو أحد تجار مدينة دمشق وهو المعروف بالشرايشي . وهذا إن دل، فإنما يدل على مدي وعي وثقافة بعض تجار دمشق بأهمية المشاركة في النهضة التعليمية والثقافية التي حدثت في مدينه دمشق من بناء مؤسسات تعليمية وتعمير وإصلاح ما يحتاج إلى ذلك من هذه المؤسسات .

وهذا يدل أيضاً على مدى التكامل والتعاون بين طبقات و فئات المجتمع في مدينة دمشق فلم يكن التجار في هذه المدينة بعيدين عن قضايا و شؤون التعليم والثقافة، بل إن التجار أرادوا أن يكون لهم دورهم في هذا المجال وذلك من خلال إسهاماتهم في النهضة الثقافية والتعليمية التي حدثت في مدينتهم، فسعوا إلى ذلك من خلال بناء مدارس وتعميرها والعناية بها. و خير شاهد على ذلك ما فعلته ما فعله التاجر الشرايشي الذي كان له همة ونشاط في هذا الشأن، فقام بتعمير المدرسة الشرايشية التي نسبت له وكانت خاصة بتعليم الفقه المالكي، وقد أدت هذه المدرسة دورها الثقافي ورسالتها السامية في تعليم الفقه المالكي مما ساعد علي انتشار هذا المذهب في ربوع مدينة دمشق .

(٤٢) النعيمي : الجزء الثاني، ص ٨ .

(٣) المدرسة النورية:

وقد ذكر ابن بطوطة مدرسة أخرى للمالكية وهي المدرسة النورية، ولكن لم يذكر من الذي بناها بل ذكر أن الذي عمرها هو الشهيد نور الدين محمود^(٤٣) وهذا يدل ويؤكد على أن الشهيد نور الدين محمود علي الرغم من أنه كان حنفي المذهب وقام ببناء مدرسة خاصة لتدريس الفقه الحنفي، وكان له اهتمام كبير بمذهب الإمام أبي حنيفة النعمان إلا أنه قام بالإتفاق على تسمير مدرسة خاصة بتدريس الفقه المالكي وهي المدرسة التي عرفت بمدرسة النورية نسبة له وتقع هذه المدرسة في منطقة حجر الذهب^(٤٤)

(د) مدارس الحنابلة :

وكان للإمام أحمد بن حنبل في مدينة دمشق اتباع ومريدون وطلاب اهتموا بدراسة فقهه، ولم يذكر ابن بطوطة أثناء رحلته وزيارته إلى مدينة دمشق من مدارس الحنابلة إلا مدرسة واحدة وهي المعروفة بالمدرسة النجمية^(٤٥) ولم نعرف من خلال المصادر التي بين أيدينا شيء عن هذه المدرسة من الذي بناها؟ وأين مكانها؟ فكل ما ذكره ابن بطوطة اسمها فقط وأنها تختص بدراسة الفقه الحنبلي .

هذا كل ما أشار إليه ابن بطوطة من مدارس فقهية اهتمت بدراسة وتعليم الفقه على المذاهب الأربعة : المذهب الشافعي والمذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الحنبلي . وقد أدت هذه المدارس دورها في تعليم أبناء مدينة دمشق المذاهب الفقهية على اختلاف أقسامها حتى يتسنى لهم معرفة مقاصد الشريعة الإسلامية، والاختلافات الفقهية في المسائل الفرعية في أبواب الفقه المختلفة من أبواب خاصة بالعبادات والمعاملات وسائر أبواب الفقه الأخرى مما يسر على الناس إقامه وتأدية الشعائر والعبادات الدينية ببسر وسهولة، وتتظم أيضاً للناس سائر المعاملات فيما بينهم من حفظ الحقوق و أداء الواجبات مما يضمن لكل فرد من أفراد المجتمع حياة كريمة تقوم على التعاون والتراحم وإعلاء قيم العدل والمساواة والخلق الرفيع في التعامل بين كل أفراد المجتمع، وهذا هو أهم مقاصد الشريعة الإسلامية .

(٤٣) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٩ .

(٤٤) ابن عساكر : مصدر سابق، ص ٧٧ .

(٤٥) ابن عساكر : مصدر سابق، ص ٦٩ .

وننتقل إلى نوع آخر من المدارس التي رآها ابن بطوطة، وهذا النوع من المدارس هو أهم ما يميز الحياة الثقافية في مدينة دمشق، وتعتبر مدينة دمشق قد سبقت غيرها من المدن في هذا النوع الخاص من المدارس إلا وهي المدارس الخاصة بتعليم الكبار، فالاهتمام بتعليم الكبار يوضح مدى العناية والاهتمام بتعليم كل فئات وطبقات المجتمع في كل المراحل العمرية حتى من فاته التعلم في الصغر لأي سبب، فمن هنا وجدت مدارس تعليم الكبار في مدينة دمشق .

(هـ) مدارس تعليم الكبار :

إن الاهتمام بتعليم الكبار و محور أميتهم في مدينة دمشق لخير دليل على وعي كبير لدي متقفي مدينة دمشق، وتعتبر مدينة دمشق من رواد المدن التي اهتمت بإقامه مثل هذا النوع من المدارس بهدف محور الأميه وتعليم الكبار، وهذا ما لم نسمع عنه إلا في وقتنا الحاضر .

ونشر التعليم بين فئات كبار السن في المجتمع يعود أثره بشكل كبير على استقرار وسلامة المجتمع، فالمجتمعات ذات الثقافة العالية أرقى بكثير من المجتمعات التي يسود فيها التخلف والجهل، فبالعلم ترقى الأمم وتختفي فيها الفواحش وتقل فيها الجرائم، فالمجتمع المثقف يعرف ابناؤه كيف يتعايشون ويحيون فيما بينهم حياة كريمة، فمن هنا كان الاهتمام بإقامة مدارس تعليم الكبار في مدينة دمشق، وهذا ما لاحظته ابن بطوطة، فيقول في شأن مدارس تعليم القرآن الكريم لكبار السن بمدينة دمشق: " وبالجهة الشمالية منها - من مدينة دمشق - روض الصالحية وهي مدينة عظيمة، لها سوق لا نظير لحسنه، وفيها مسجد جامع ومارستان، وبها مدرسة ابن عمر، موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول، وتجري لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المأكل والملبس". ويداخل البلد أيضًا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجي .

وهذا القول لابن بطوطة يشتمل على تفصيل تام لكل ما يجب معرفته عن مدارس تعليم القرآن الكريم لكبار السن بمدينة دمشق ومدى اهتمام دولة المماليك البحرية بالمعلمين والمتعلمين في هذه المدارس - كم سنوضح .

فرغم أن ابن بطوطة ذكر مدرستين فقط اهتمتا بتعليم الكبار في مدينة دمشق، فمما لا شك فيه أن هناك مدارس أخرى أقيمت و تأسست لهذا الغرض .

وهاتان المدرستان اللتان ذكرهما ابن بطوطة لتعليم الكبار بمدينة دمشق إحداهما عرفت باسم مدرسة ابن عمر وتقع هذه المدرسة في مدينة الصالحية شمالي دمشق وتابعة لها، وهذه المدرسة خاصة بتعليم وتحفيظ القرآن الكريم لكبار السن ومن فاته التعلم في الصغر^(٤٦) وثانيهما مدرسة عرفت بمدرسة ابن منجي، وتقع أيضًا بمدينة الصالحية^(٤٧) وأنشئت لنفس الغرض وهو تعليم القرآن الكريم لكبار السن .

وتشجيعًا لكبار السن وتحفيزًا لهم لكي يقبلوا على الالتحاق بهذه المدارس لتعلم القرآن الكريم بها، فقد أعطت دولة المماليك البحرية كل من يقبل على التعلم في هذه المدارس ما يكفيه من المأكل والملبس بأن قررت له مرتب ثابت من الدولة لينفق منه على نفسه وأهل بيته بشراء كل متطلبات حياته اليومية، فهي بذلك تكون قد كفته مؤنته وكل ما يشغل باله من أمور المعيشة، وذلك لكي يفرغ ذهنه ويقبل بهمة ونشاط وذهن صافي على تعليم القرآن الكريم، فهذا ما قامت به دولة المماليك البحرية من جهد ووقوفها بجانب كبار السن لكي يتعلموا القرآن الكريم^(٤٨)

أما عن وقوف الدولة بجانب معلمي القرآن الكريم لكبار السن؛ نظرًا لما يعانيه من جهد ومشقة أكثر من تعليمه للصغار، فقد قامت دولة المماليك البحرية بتشجيع المعلمين لكي يقبلوا على تعليم الكبار وذلك بأن انفق عليهم من الأموال الشيء الكثير وأجزلت لهم العطاء بما يكفيهم مؤنتهم ويوفر لهم حياة كريمة، فتكفلت لمعلمين الكبار بكل ما يحتاجون من شؤون الحياة من مأكل وملبس، وخلاف ذلك وكل ما من شأنه أن يشغل بالهم من شؤون حياتهم؛ وذلك تشجيعًا لهم وحثهم على أن يقبلوا على تعليم القرآن الكريم لكبار السن بهمة ونشاط وتحمل مشقة هذا النوع من التعليم^(٤٩) بالإضافة إلى أن هذه المدارس رغم أنها مدارس لتعليم القرآن الكريم، فهذا معناه أن الذين يلتحقون بهذه المدارس كان يتعلمون القرآن الكريم بطريقة التلقين، ولكن كان

^(٤٦) ابن عساكر: مصدر سابق، ص ٧١ .

^(٤٧) ابن عساكر: مصدر سابق، ص ٧١ .

^(٤٨) ابن عساكر: مصدر سابق، ص ٧١ .

^(٤٩) ابن عساكر: مصدر سابق، ص ٧١ .

لابد أن يتعلموا مبادئ القراءة والكتابة، وهذا مطلب أساسي لتعلم القرآن الكريم، فمحو الأمية بهذا الشكل من تعليم القراءة والكتابة ثم تعليم القرآن الكريم، فهذا يتطلب بذل جهد أكبر من معلمي هذه المرحلة من كبار السن؛ لأن طريقة التلقين قد توتي ثمارها بشكل كبير مع صغار السن، أما الكبار، فيصعب عليهم التعلم بالتلقين .

وما بين التعلم بالتلقين أو تعلم مبادئ القراءة والكتابة في كل مدارس دمشق سواء من المدارس الفقهية أما مدارس تعليم الكبار تتعدد طرق وأساليب التعليم كما سنرى .

ثانياً : طرق وأساليب التعلم في مدارس مدينة دمشق

الطريقة أو الأسلوب الذي يتبعه المعلم مع تلميذه يعد من أهم الأسباب التي تعين المتعلم على فهم واستيعاب ما يلقي إليه من دروس العلم .

وقد تعددت طرق التعلم في مدارس دمشق حسب المادة العلمية التي تدرس وأيضا حسب المرحلة العمرية للمتعلم، ففي المرحلة العمرية المبكرة وهي مرحلة الصبا، حيث يتعلم الصبيان القرآن الكريم في هذه المرحلة يتم اتباع طريقة التلقين .

وعن هذه الطريقة يقول ابن بطوطة: "يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى، وإنما يقرعون القرآن تلقيناً"^(٥٠) ويعلل ابن جبير استخدام هذه الطريقة وعدم كتابة القرآن الكريم في ألواح بقوله "وتعليم الصبيان للقرآن الكريم إنما هو تلقين ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو"^(٥١)

ولنا مع هذه الآراء وقفه :

إن تعلييل ابن جبير وابن بطوطة لعدم كتابة القرآن الكريم في ألواح بالنسبة للصبيان في تحفيظهم للقرآن الكريم وأن ذلك خوفاً من ابتذال الصبيان للقرآن الكريم بالمحو أو الإثبات هذا تعلييل يوجد ما هو أفضل منه، فمن الأفضل أن نقول تعليلاً لعدم كتابة القرآن الكريم في الواح

(٥٠) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٧ .

(٥١) ابن جبير : مصدر سابق، ص ٢٢٠ .

للصبيان ليس خوفاً من ابتذال الصبيان للقرآن الكريم؛ بل لأن طريقة التلقين هي الأنسب للمرحلة العمرية للصبيان؛ لأن تعلم القراءة والكتابة لهم صعب في هذه المرحلة، فالتلقين هو الأفضل لهم في هذه المرحلة .

بالإضافة إلى أن القرآن الكريم لقراءته الصحيحة لابد من السماع من الشيخ إذ إن السماع قاعدة أساسية و طريقه لتحفيظ القرآن الكريم .

وليس هناك سمة مشكلة حقيقية في أن يكتب القرآن الكريم في ألواح ولا ينقص ذلك من عظمة و قدسية القرآن الكريم شيئاً إذا كتب في ألواح، ولكن هذا يكون في مرحلة لاحقة بعد أن يكبر الصبي وتتسع مداركه لتعلم أصول القراءة والكتابة الصحيحة، أما في مدارس الفقه، فالتعليم فيها يكون بإلقاء المعلم الدرس على طلابه وشرحه جيداً ثم يقوم المعيد بإعادة وتوضيح كل ما شرحه المعلم .

وتعتبر مدينة دمشق من أسبق المدن الإسلامية التي ظهر فيها تعيين معيد أو أكثر لكل مادة دراسية، فوظيفة المعيد التي انتشرت في جامعتنا المعاصرة لم تكن وليدة العصر الحاضر، فقد سبقت إلى ذلك مدينة دمشق العريقة التي تعتبر من أسبق المدن الإسلامية في الاهتمام بتعيين معيد ليعيد للطلاب من شرحه المدرس . (٥٢)

يقول الدكتور سعيد عاشور: لقد جرت العادة- في مدينة دمشق- على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس ليعيد للطلاب ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج إلى شرح (٥٣) فإن، دور المعيد أن يجلس مع الطلاب قبل الدرس أو بعده لمساعدتهم في استيعاب دروسهم، فدور المعيد في العملية التعليمية دوراً تكميلياً لما يقوم به المدرس من ألقاء الدروس وتفهم الطلاب حتى يصل الطلاب إلى درجة عالية من الفهم لمسائل الفقه المختلفة التي تحتاج إلى شروح وإعادات كثيرة حتى يتم استيعاب مسائل الفقه؛ لأن قضايا ومسائل الفقه من الأهمية بمكان.

(٥٢) النعمي: الجزء الاول، ص ٣٦٨؛ أحمد رمضان: مرجع سابق، ص ١٤٨ .

(٥٣) مرجع سابق: ص ٣٤٤ .

فمدرس الفقه كالطبيب، فإذا كان الطبيب يرشد الناس إلي ما يصلح أبدانهم ويشفي علمهم الجسدية، فإن مدرس الفقه يرشد الناس إلي ما يصلح دينهم وعقيدتهم، فمدرس الفقه وطالب الفقه لا بد أن يتحلى بصفات عديدة كالفهم والنكاء الشديد وصفاء الذهن ليستوعب كل ما يلقيه عليه المدرس والمعيد من مسائل تهتم بالقضايا الفقهية التي تهتم كل أفراد المجتمع الإسلامي .

وإذا كانت مدينة دمشق قد سبقت غيرها من المدن الإسلامية في وجود وظيفة ما يعرف بالمعيد تلك الوظيفة التي لها أهمية كبرى في العملية التعليمية حيث إن المعيد يكون عوناً للطلاب في شرح وتوضيح لما يقاه المدرس من مسائل فقهية .

فإن مدينة دمشق أيضاً قد سبق غيرها من المدن الإسلامية في جعل وقت الدراسة اليومي اختياري للمدرس، حيث إن اليوم الدراسي يبدأ من طلوع الشمس إلى آذان العصر، وعلى المدرس أن يختار الوقت المناسب أثناء النهار على أن تكون فترة الدراسة الفعلية لمدة ثلاث ساعات فقط^(٥٤)

وهنا يجب على المدرس التعاون مع الطلاب في اختيار وقت الدراسة المناسب لهم؛ لأن هذا ادعي لتحقيق الفائدة العلمية والنفع المطلوب، فاختيار توقيت الدراسة من الأهمية بمكان، حيث أن هناك أوقات تكون فيها درجة الاستيعاب لدى الطلاب أكثر من أوقات أخرى . أما أيام الدراسة، فكانت من ٤ إلى ٥ أيام فقط في الأسبوع حسب ما تقتضيه العملية التعليمية^(٥٥)

وعرفت مدينة دمشق الإجازة السنوية (العطلات الدراسية) للطلاب والمدرسين وهذه الإجازات تكون في شهر رجب وشعبان ورمضان والعشرين من شوال .^(٥٦)

^(٥٤) محمد محمد أمين: الأوقاف والتعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، دط، سنة ١٤١١ هجرية / ١٩٩٠ ميلادية، ص ٨٥٤ .

^(٥٥) محمد محمد أمين: مرجع سابق، ص ٨٥٤ .

^(٥٦) محمد محمد أمين: مرجع سابق، ص ٨٥٥ .

وأرى أن الهدف من اختيار هذه الأشهر لتكون إجازة سنوية لمدارس دمشق قد يكون لتفرغ الطلاب والمدرسين معاً للإكثار من الأعمال الصالحة من عبادات وغيرها والتعرض للنفحات الربانية في هذه الأشهر المباركات التي يكون ثواب العبادة والعمل الصالح فيها أفضل من غيرها، فهذه الشهور هي من أفضل الشهور عند الله سبحانه وتعالى .

وبعد أن رأينا كيف تعددت طرق وأساليب التعلم في المدارس الفقهية بمدينة دمشق لتحقيق الثمرة المرجوة من التعلم وهي تنقيف طلاب مدينة دمشق وتعليمهم ليكونوا علماء كبار في المذاهب الفقهية المختلفة، ولكي يصبح الطالب عالماً لا بد من إثبات ذلك من شيخه، بأن هذا الطالب أصبح بارعاً في أحد فروع الفقه المختلفة وهذا الإثبات هو ما عرف بالإجازات العلمية التي يمنحها الشيخ أو المدرس لطلابه - كما سنرى .

ثالثاً : الإجازات العلمية بمدينة دمشق

بعد أن يصل الطالب إلى مبتغاه من تحصيل قدر معين من العلم في بعض المسائل الفقهية يجني الطالب ثمار جهده وتعبه بأن يحصل من مدرسه أو شيخه على إجازة في فن معين من فنون الفقه المختلفة تجعله قادراً على الفتيا وإلقاء الدروس في هذا النوع من العلوم، ولا يتأتى له ذلك إلا بالحصول على الإجازات العلمية التي تعتبر المؤهل الحقيقي للجلوس لإلقاء الدروس في مذاهب الفقه المختلفة.

وإذا أردنا التعرف على الإجازات العلمية التي صدرت في المدارس الفقهية بمدينة دمشق فأنا سنذكر بعض فقهاء كل مدرسة؛ لأن هؤلاء الفقهاء هم من أصدروا هذه الإجازات العلمية لطلابهم.

فمن أشهر فقهاء المدرسة العادلية : القاضي الفقيه جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني^(٥٧)، وجمال الدين المصري الذي كان يحضر مجلسه السلطان وأيضاً قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خليل الخوي^(٥٨)

^(٥٧) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٦ .

^(٥٨) النعيمي : الجزء الأول، ص ٣٦٢ .

ومن أشهر فقهاء المدرسة الظاهرية : الشيخ رشيد الدين أبو حفص عمر بن إسماعيل بن مسعود^(٥٩)، والشيخ علاء الدين بن بنت الأعز^(٦٠)، ومن أشهر فقهاء مدرسة الشهيد نور الدين محمود التي كانت للأحناف القاضي الفقيه عماد الدين الحوراني^(٦١)، والقاضي شمس الدين الزرعي^(٦٢) والشيخ صدر الدين سليمان^(٦٣)

ومن أشهر فقهاء المدرسة الصمصامية : شرف الدين خطيب الفيوم^(٦٤)، والفقيه نور الدين علي بن عبد النصير المالكي وكان يحضر مجلسه القضاة والأعيان^(٦٥) والفقيه شمس الدين غبريال الأسمرى^(٦٦)

ومن أشهر فقهاء المدرسة الشراشبية : وهو أول من درس بها تاج الدين عبد الرحمن الزواوي^(٦٧) والقاضي جمال الدين أبو يعقوب يوسف بن عبد السلام بن عمر الزواوي الذي كان قائد المالكية بجانب أنه مدرس الفقه المالكي بالمدرسة الشراشبية^(٦٨)

ومن فقهاء مدرسة النورية : بهاء الدين بن العقاده وهو أول من درس بها^(٦٩) وبرهان الدين بن مسعود الدمشقي^(٧٠) و تاج الدين بن سوار^(٧١)

^(٥٩) النعيمي : الجزء الأول، ص ٣٥١ .

^(٦٠) النعيمي : الجزء الأول، ص ٣٥٢ .

^(٦١) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٨ .

^(٦٢) محمد كردي على : مرجع سابق، ص ٩٥ .

^(٦٣) النعيمي : الجزء الأول، ص ٣٥١ .

^(٦٤) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٧ .

^(٦٥) النعيمي : الجزء الثاني، ص ٨ .

^(٦٦) النعيمي : الجزء الثاني، ص ٨ .

^(٦٧) النعيمي : الجزء الثاني، ص ٨ .

^(٦٨) النعيمي : الجزء الثاني، ص ٥ .

^(٦٩) النعيمي : الجزء الأول، ص ٦١٨؛ جمال محمد سالم خليفه : فقهاء الشام في مواجهة الغزو الصليبي (٤٩١- ٦٩٠ هجرياً/ ١٠٩٧ - ١٢٩١ ميلادياً)، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، الطبعة

الأولى، سنة ١٤٢٧ هجرياً/ ٢٠٠٦ ميلادياً، ص ١٩٩ .

^(٧٠) النعيمي : الجزء الأول، ص ٦١٩ .

^(٧١) النعيمي : الجزء الأول، ص ٦٤٩ .

ومن فقهاء مدرسة الحنابلة: القاضي عز الدين بن مسلم^(٧٢) والفقهاء شرف الإسلام عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج الحنبلي عبد الواحد بن محمد الأنصاري الشيرازي^(٧٣) وهؤلاء الفقهاء هم من تولوا إصدار الإجازات العلمية في مدارسهم، وكانوا كل فقيه يكتب في الإجازة أن الطالب اتم دراسته وتأهل للفتيا والتدريس، ويكتب أيضاً في الإجازة اسم الطالب واسم شيخه ومذهبه وتاريخ إصدار الإجازة وقد حصل ابن بطوطة في أثناء وجوده بدمشق على إجازة عامة من فقهاء وعلماء مدينة دمشق ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد المقدسي ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي وغيرهم وذلك في سنة ٦٢٦ هجرياً^(٧٤) وكانت قيمة الإجازة ومكانتها العلمية تتوقف على سمعة الفقيه الذي أصدرها ومكانته العلمية وشهرته بين علماء مذهبه^(٧٥)؛ لأن هذه الإجازة إقرار خطي يكتبه الفقيه ويعترف فيه بأن حامله قد قرأ عليه وأصبح مؤهلاً لتعليم غيره، وكانت هذه الإجازة تشبه في وقتنا الحاضر شهادة الماجستير أو الدكتوراه التي تتوقف قيمتها بشكل كبير على مكانه المعلم المشرف العلمية وشخصيته وحسن سيرته العلمية والعملية والاجتماعية.

هذا كلما وفقنا الله أن نستخلصه مما ذكره ابن بطوطة من وصف لمدارس الفقه في مدينة دمشق، وما تضمنه هذه المدارس من فقهاء وعلماء برعوا في كل المذاهب الفقهية المختلفة، واخلصوا في أداء رسالتهم بشتي الطرق والأساليب مما نتج عنه وجود جيل من الفقهاء من أبناء دمشق أصبح لهم باع طويل في قيام نهضة ثقافية في مدينة دمشق.

^(٧٢) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٦٨ .

^(٧٣) النعيمي: الجزء الثاني، ص ٣٨ .

^(٧٤) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٧٧ .

^(٧٥) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء الرابع عشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، (د.ت) ص ٣٢٢ - ٣٢٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: مرجع سابق، ص ٣٤٤ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضلته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الكريم وبعد

فمن خلال هذه الدراسة التي تناولت مدارس دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة نتضح لنا عدة نتائج أهمها :

- أن كل ما ذكره ابن بطوطة عن مدارس دمشق وما تلقاه هذه المدارس من عناية ورعاية من جانب سلاطين المماليك حتى غدت واحدة من أرقى المدن الثقافية في العالم الإسلامي في ذلك الوقت يعطينا رداً قوياً على من وصف عصر المماليك بالتخلف العلمي والجمود الفكري
- تعتبر مدينة دمشق من أسبق المدن في تعيين معيدين بمدارسها لمعاونة ومساندة المدرسين في أداء رسالتهم، فدور المعيد هو شرح أو توضيح أو إعادة لما ذكره المدرس إذا احتاج الطلاب ذلك، فلمعيد دور حيوي في العملية التعليمية
- كذلك اهتمت مدينة دمشق بتعليم الخط العربي، فبهذا تكون قد سبقت غيرها في وضع أسس مدارس الخط العربي والزخرفة الإسلامية التي انتشرت فيما بعد في ربوع العالم الإسلامي
- عرفت كذلك مدينة دمشق التخصص في المذاهب الفقهية فعلى الرغم من انتشار جميع المذاهب الفقهية في دمشق إلا إنه كان لكل مذهب طلاب ومريدين لهم كل الحرية في اختيار المذهب الذين يدرسونه و يتقنون في مسأله
- كذلك اهتمت مدينة دمشق في إلحاق سكن للعلماء والطلاب في كل مدرسة وهذا أشبه في وقتنا الحاضر باستراحات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات المعاصرة بالنسبة للمدرسين وأشبه بالمدن الجامعية في وقتنا الحاضر بالنسبة للطلاب

- حرص أبناء دمشق على دراسة المذاهب الفقهية المختلفة والحرص أيضًا على الحصول على إجازات علمية تثبت للطالب حصوله على قدر معين في دراسة بعض المسائل الفقهية على مذهبه الذي اختاره بإرادته وتعطيه الحق في الجلوس لإلقاء دروس هذا المذهب والفتيا في مسائله أيضًا؛ لأن هذه الإجازة إقرار من شيخه الذي درسه

التوصيات

إذا كان ابن بطوطة في أثناء زيارته إلى مدينة دمشق قد اهتم بذكر المدارس الفقهية فقط والتي انتشرت في مدينة دمشق، فإن هذا لا يعني أن مدينة دمشق لم يكن فيها إلا مدارس الفقه، بل أن مدينة دمشق كان فيها مدارس القرآن الكريم ومدارس الحديث الشريف ومدارس للتخصصات العلمية مثل مدارس الطب والصيدلة والهندسة وغيرها .

وإذا كنا قد عشنا مع ابن بطوطة ووصفه لمدارس الفقه بمدينة دمشق ودورها الثقافي، فإن مجال المدارس في مدينة دمشق موضوع كبير يحتاج إلى العديد من الأبحاث العلمية لذا أوصي الباحثين إلى التنقيب والبحث في أنواع المدارس الأخرى التي انتشرت في مدينة دمشق من حيث دراسة الاوقاف الخاصة بها ورحلات العلماء من و إلى مدينة دمشق والتفاعل الثقافي بين مدينة دمشق ومدن العالم الإسلامي الأخرى من حيث التأثير والتأثر، كذلك الشكل المعماري لهذه المدارس وما تحويه من إيوانات ومسكن للمدرسين والطلاب وما تضمه من مسجد ومكتبة .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن بطوطة: (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، سنة ٧٧٠ هجرياً / ١٣٦٨ ميلادياً)
- (١) تحفه النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، كتاب التحرير، القاهرة، سنة ١٣٨٦ هجرياً / ١٩٦٦ ميلادياً .
- البغدادي : (صفي الدين عبد المؤمن، ت ٧٣٩ هجرياً / ١٣٣٨ ميلادياً)
- (٢) مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، الجزء الثاني، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٣٧٥ هجرياً / ١٩٥٥ ميلادياً .
- الجبرتي: (عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين، ت ١٢٤٠ هجرياً / ١٨٢٥ ميلادياً)
- (٣) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، د.ط، سنة ١٤١٨ هجرياً / ١٩٩٧ ميلادياً .
- ابن جبيرابو: (أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الاندلسي، ت ٦١٤ هجرياً / ١٢١٧ ميلادياً)
- (٤) رحلة ابن جبير، بيروت، سنة ١٣٨٤ هجرياً / ١٩٦٤ ميلادياً .
- ابن حجر العسقلاني: (شهاب الدين أبو الفضل أحمد، سنة ٨٥٢ هجرياً / ١٤٤٨ ميلادياً)
- (٥) إنباء الغمر بأبناء العمر، الجزء الأول، دن، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٦ هجرياً / ١٩٩٢ ميلادياً .
- ابن رسته: (أبي على أحمد بن عمر من أهل القرن الثالث الهجري)
- (٦) كتاب الاعلاق النفسية، المجلد السابع، دن، مدينة ليدن، سنة ١٣٨٧ هجرياً / ١٩٦٧ ميلادياً .
- الصفدي: (صلاح الدين خليل بن ابيك، ت ٧٦٤ هجرياً / ١٣٦٢ ميلادياً)
- (٧) تحفه ذوي الأبواب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، القسم الثاني، تحقيق : إحسان بنت سعيد خلوصي - وزهير حميدان الصمصام، وزارة الثقافة - سوريا - دمشق، د.ط، سنة ١٤١٣ هجرياً / ١٩٩٢ ميلادياً .

- عبد الله محمد البديري : (المصريي الدمشقي من علماء القرن التاسع عشر)
(٨) نزوه الأتام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٤١ هجرية / ١٩٢٢ ميلادية.
- ابن عساكر: (على ابن الحسن من هبه الله بن عبد الله الشافعي د.ت)
(٩) تاريخ مدينة دمشق، المجلد الثاني، القسم الأول، خطط الشام، تحقيق : صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق، سنة ١٣٧٤ هجرية / ١٩٥٤ ميلادية .
- القلقشندي: (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هجرية / ١٤١٨ ميلادية)
(١٠) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء الرابع عشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، د.ت .
- ابن كثير: (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤ هجرية / ١٣٧٢ ميلادية)
(١١) البداية والنهاية، المجلد السادس، بيروت، الجزء الرابع والجزء الثاني عشر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت .
- المقريزي: (تقى الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٦ هجرية / ١٤٤٢ ميلادية)
(١٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثالث، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨ هجرية / ١٩٩٧ ميلادية .
- النعمي: (عبد القادر بن محمد النعمي الدمشقي، ت ٩٢٧ هجرية / ١٥٢٠ ميلادية)
(١٣) الدارس في تاريخ المدارس، الجزء الأول والثاني، تحقيق: جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ط، سنة ١٤٠٩ هجرية / ١٩٨٨ ميلادية .
- ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت، سنة ٦٢٦ هجرية / ١٢٢٨ ميلادية)
(١٤) معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، سنة ١٣٧٧ هجرية / ١٩٥٧ ميلادية .

ثانياً : المراجع العربية :

أحمد رمضان: (دكتور)

(١) المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، د.ت، د.ن .

أنور زقلمة: (دكتور)

(٢) الممالك في مصر، مطبعة مندبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥ هجرياً / ١٩٩٥ ميلادياً.

بروكلمان: (دكتور)

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٣٦٧ هجرياً / ١٩٤٨ ميلادياً .

جمال محمد سالم خليفة: (دكتور)

(٤) فقهاء الشام في مواجهة الغزو الصليبي (٤٩١ - ٦٩٠ هجرياً / ١٠٩٧ - ١٢٩١ ميلادياً) عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٧ هجرياً / ٢٠٠٦ ميلادياً.

حسام الدين الحذوري: (دكتور)

(٥) الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، سنة ١٤٣٢ هجرياً / ٢٠١١ ميلادياً .

رانيا الهاشم: (دكتور)

(٦) قصة وتاريخ الحضارات العربية، الجزء السابع عشر، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٠ هجرياً / ١٩٩٩ ميلادياً .

سعيد عبدالفتاح عاشور: (دكتور)

(٧) العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٦ هجرياً / ١٩٩٥ ميلادياً.

محمد عيسى الحريري: (دكتور)

(٨) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المديني، دار القلم للنشر، الكويت الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٧ هجراً / ١٩٩٧ ميلادياً.

محمد كرد علي: (دكتور)

(٩) خطط الشام، الجزء الخامس، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٣ هجراً / ١٩٨٣ ميلادياً.

محمد محمد أمين: (دكتور)

(١٠) الأوقاف والتعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، د.ط، سنة ١٤١١ هجراً / ١٩٩٠ ميلادياً .

محمد مختار باشا: (دكتور)

(١١) التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية، دراسة وتحقيق: محمد عمارة (دكتور)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٠ هجراً / ١٩٨٠ ميلادياً.

ويستفاد:

(١٢) جدول السنين الهجرية وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة: عبدالمعظم ماجد (دكتور) وعبدالمحسن رمضان (دكتور)، الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠١ هجراً / ١٩٨٠ ميلادياً.